الفصل التاسع

زهير بن أبي سلمى

١

قبيلته

هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني، فأبوه من قبيلة مزينة، وكانت تجاور في الجاهلية بني عبد الله بن غطفان حيث كانوا ينزلون في الحاجر بنجد شرقي المدينة وينزل معهم بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان أخوال أبيه ربيعة. ويحدثنا الرواة أنه أقام فيهم زمنًا مع أمه، وحدث أن أغار مع قوم منهم على طيئ وأصابوا نعمًا كثيرًا وأموالاً، ولما رجعوا لم يفردوا له سهمًا في غنائمهم، فغاضبهم وانطلق بأمه إلى قبيلته مزينة، ثم لم يلبث أن أقبل في جماعة منها مغيرًا على عشيرة أخواله، ولم يكادوا يتوسطون ديارها حتى تطايروا راجعني وتركوه وحده، فأقبل حتى دخل في أخواله، ولم يزل فيهم حتى توفي ومن ثم ولد له زهير وأولاده في منازل بني مرة وبني عبد الله بن غطفان[١]. وكان ذلك سببًا في أن يضطرب الرواة وأن يظن بعضهم أن زهيرًا غطفاني القبيلة[٢]، وهو في الحقيقة مزني النسب غطفاني النشأة والمربي، وقد صرح ابنه كعب بهذا النسب إذ يقول في بعض شعره ردًا على مزرد بن ضرار وقد عزاه إلى مزينة[٣]:

هم الأصل مني حيث كنت وإنني ... من المزنيين المصفين بالكرم

ويظهر أن ربيعة لم يعش طويلاً في عشيرة أخواله، ويقول الرواة إن امرأته تزوجت من بعده أوس بن حجر الشاعر التميمي المشهور. وهنا يلمع في حياة زهير اسم خاله بشامة بن الغدير، فقد كفله هو وإخوته، ونعرف منهم سلمى كما نعرف أخرى تسمى الخنساء.

---

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠/ ٢٩١ وما بعدها.

(٢) أنظر ترجمة زهير في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٨٦.

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص٨٨ وما بعدها.

وقد عاش زهير في خلال هذه الحروب التي نشبت بين عسبس وذبيان، حروب داحس والغبراء التي سبق أن تحدثنا عنها في غير هذا الموضع، وقد أسهمت عشيرة أخواله، في تلك الحروب وصليت نارها. وأيضًا فإنها صليت نيران حروب أخرى كانت تنشب بينها وبين بعض العشائر الذبيانية، وفي شعر خاله بشامة ما يصور تلك الحروب الأخيرة، فقد روى له صاحب المفضليات قصيدتين يحرض فيهما عشيرته أن لا يخذلوا حلفاءهم "الحرقة" وأن يقفوا معهم ضد بعض العشائر من بني سعد بن ذبيان. ومعنى ذلك أن الأيام التي عاشها زهير في عشيرة أخواله الذبيانيين لم تكن أيام استقرار وأمن، إنما كانت أيام حروب وسفك للدماء، فدائمًا تشن الغارات، ودائمًا تجيش القلوب بالأضغان، فتسل السيوف وتقطع الرقاب. ويعودون من حروبهم دائمًا إلى رعي الإبل والأغنام، وإلى صيد بعض الحيوان، شأن القبائل النجدية في العصر الجاهلي.

وكانت ذبيان وغيرها من قبائل غطفان تتعبد في الجاهلية العزى، ويقال إنها كانت شجرة أقامت حولها كعبة كانت تحج إليها، وتهدي القرابين، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وربما قال الرواة إنها شجرات ثلاث، وقد يقولون إنه كان في الكعبة وثن. وأكبر الظن أن هذا هو الصحيح فقد كان فيها وثن العزى، وكان من حوله شجرات يقدسونها[1]. ومهما يكن فقد كانوا وثنيين، وظلوا على وثنيتهم إلى ظهور الدين الحنيف.

(١) أنظر تاريخ العرب قبل افسلام لجواد على ٥/ ٩٧ وما بعدها.

obeikandl.com

٢

حياتـه

ليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأة زهير سوى أنه عاش في منازل بني عبد الله ابن غطفان وأخواله من بني مرة الذبيانيين، وفي كنف خاله بشامة بن الغدير، وكان شاعرًا مجيدًا كما كان سيدًا شريفًا ثريًا، يقول ابن سلام: "وكان كثير المال، وكان ممن فقأ عين بعير في الجاهلية، وكان الرجل إذا ملك ألف بعير فقأ عين فحلها[١]". وكان بشامة من أحزم الناس رأيًا فكان قومه يستشيرونه ويصدرون عن رأيه، ولم يكن له ولد، فلما حضرته الوفاة جعل يقسم ماله في أهل بيته وأعطى زهيرًا نصيبًا منه، ويروي أنه قال له إني أعطيتك ما هو أفضل من المال، فقال زهير: ما هو؟ فقال له: شعري[٢]، وهو لم يرث عنه شعره وماله فقط، بل ورث عنه أيضًا خلقه الكريم. وفي أخباره أنه تزوج من امرأتين: أم أوفي وهي التي يذكرها كثيرًا في شعره، ويظهر أن المعيشة لم تستقم بينهما، فطلقها بعد أن ولدت منه أولادًا ماتوا جميعًا. والثانية التي تزوجها من بعدها هي كبشة بنت عمار الغطفانية، وهي أم أولاده: كعب وبجير وسالم، ومات سالم في حياته ورثاه ببعض شعره[٣].

وهو يتحدث في شعره طويلاً عن حروب داحس والغبراء مشيدًا بهرم بن سنان والحارث بن عوف سيدي بني مرة اللذين حقنا دماء عبس وذبيان بعد أن طال عليهما الأمد في تلك الحروب، إذ تحملا ديات القتلى، ويقال إنها كانت ثلاثة آلاف بعير أدياها في ثلاث سنين[٤]. واعتد زهير بهذه المنة الجليلة فأشاد بها في معلقته، وظل طوال حياته يمدح هرمًا ويمجده، وهرم يغدق عليه[٥]. وبذلك أعطى كل منهما صاحبه خيرب ما يملك، وقد ذهب ما أعطاه هرم لزهير مع الزمن، أما ما أعطاه زهير هرمًا فخلد على الأيام. ومن طريف ما يروي في هذا الصدد أن هرمًا "حلف أن لا

---

(١) ابن سلام ص٥٦٣.

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ١٠/ ٣١٢.

(٣) أغاني ١٠/ ٣١٣.

(٤) أغاني ١٠/ ٢٩٧.

(٥) أغاني ١٠/ ٣٠٥.

يمدحه زهير إلا أعطاه ولا يسأله إلا أعطاه ولا يسلم عليه إلا أعطاه: عبدًا أو وليدة أو فرسًا، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه، فكان إذا رآه في ملأ قال: عموا صباحًا غير هرم، وخيركم استثنيت[1]". ونراه يشيد بحصن بن حذيفة سيد بني فزارة الغطفانيين، وخاصة بحروبه مع أحلافه بني أسد ضد النعمان بن الحارث الغساني وما أنزلوا بجيوشه من هزائم منكرة[2]. وليس في ديوانه وراء حروب حصن وحروب داحس والغبراء إشارة إلى غارات سوى ما كان من غارة الحارث بن ورقاء الأسدى في جماعة من قومه على عشيرته، وقد أخذ فيها أخذ إبلاً وغلامًا لزهير يسمى يسارًا. وغضب زهير غضبًا شديدًا، وهدده إن لم يرد عليه إبله أن يهجوه هجاء مقذعًا، مذكرًا له بما بين عشيرتيهما من مواثيق وعهود نقضها نقضًا، وخشى الحارث معرة لسانه وما يصب عليه من لعنات فرد عليه ماله وغلامه[3].

وتدل الدلائل على أنه عاش في سعة من المال مما ورثه عن خاله وما كان يقدم له هرم وغيره من أشراف قبيلته من أموال. وان فيه توقر ونبل، ولعل ذلك ما جعل شعره يخلو من الفحش والعهر، فهو من ذوق آخر غير ذوق امرئ القيس المفتون بالنساء وتصوير مغامراته القصصية معهن. ومن غير شك كان وثنيًا، مثله مثل قومه، وإن كنا نلاحظ عنده بعض أبيات يؤمن فيها باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب، يقول في معلقته:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكـــم ليخفي ومهما يكتم الله يعلـــم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخـــر ليوم الحساب أو يعجل فينقـــم

وإذا صحت نسبة البيتين إليه كان ذلك دليلاً على أنه أحد من تحنفوا في الجاهلية وشكوا في دينهم الوثني[4] وأغلب الظن أنه لم يفارق دين قومه، إنما هي خطرات كانت تمر به.

---

(١) أغاني ١٠/ ٣٠٥.

(٢) أنظر ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص١٤٣ ومختار الشعر الجاهلي للسقا ص٢٤٥.

(٣) أغاني ١٠/ ٣٠٧ وما بعدها.

(٤) أنظر في ذلك المحبر لابن حبيب ص٢٣٨ حيث يذكر أنه كان ممن حرموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام.

وحياة زهير من الوجهة الأدبية طريفة، فقد كان أبوه شاعرًا، وكذلك كان خاله كما قدمنا، وأختاه سلمى والخنساء، وورث عنه الشعر ابناه كعب وبجير، واستمر الشعر في بيته أجيالاً، فقد كان عقبة بن كعب شاعرًا، وكان العوام ابن عقبة شاعرًا أيضًا[1] ويقولون إنه رحل عن البادية وأقام في البصرة.

فنحن بإزاء شاعر اتصل الشعر في بيته اتصالاً لم يعرف لشاعر جاهلي ممن عاصروه، وليس هذا فحسب، فإنه عاش للشعر يعلمه ابنيه بجيرًا وكعبًا من جهة، وأناسًا آخرين من غير بيته أشهرهم الحطيئة، فهو تلميذه وخريجه. وفي أخباره مع ابنه كعب ما يدل على الطريقة التي كان يخرج بها الشعراء، فقد كان يلقنهم شعره ويروونه عنه، وما يزالون يتلقنونه، حتى تنطبع في أنفسهم طريقة نظم الشعر وصوغه، وهو في أثناء ذلك يمتحن قدرتهم، بما يلقى عليهم من أبيات يطلب إليهم أن يجيزوها، بنظم بيت على غرار البيت الذي ينشده في الوزن والقافية[2]. ويظهر أنه عمر طويلاً إذ يقال في بعض الروايات إنه أدرك الإسلام وله مائة سنة ولم يسلم [3]، ولكن إدراكه الإسلام غير صحيح، إنما الصحيح أنه مات قبيل الإسلام بمدة قليلة، والذي أدرك الإسلام حقًا ابناه بجير وكعب، وقد اسلما وحسن إسلامهما، ولكعب قصيدة معروفة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي ذائعة مشهورة.

(١) مقدمة ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص٩ وقارن بالأغاني ١٠/ ٣١٤ والشعر والشعراء ١/ ٩٢.

(٢) ديوان زهير ص٢٥٦.

(٣) أغاني ١٠/ ٢٩١.

obeikandl.com

٣

ديوانــه

طبع ديوان زهير طبعات مختلفة، لعل آقدمها طبعة ألوارد في مجموعة العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين ومر بنا- في حديثنا عن ديوان امرئ القيس- أنه استخرجها من شرح الشنتمري للدواوين الستة: دواوين امرئ القيس النابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة، وهي برواية الأصمعي غير أنه جردها من الشرح وأضاف إلى تلك الدواوين أشعارًا أخرى مما وجدها في كتب الأدب والتاريخ. ونشر الديوان لندبرج السويدي بشرح الشنتمري سنة ١٨٨٩ في سلسلته التي سماها "طرفا عربية"، ومكانه فيها الطرفة الثانية، وطبع بعد ذلك في مصر وغيرها طبعات تعتمد على نشرة لندبرج؛ ونشره مصطفي السقا في مجموعته مختار الشعر الجاهلي، وهي تتضمن كما مر بنا نفس الدواوين الستة التي شرحها الشنتمري، وقد أضاف إليها شرحًا مختصرًا من شرح الشنتمري. ونشرت هذه الدواوين برواية الأعلم البطليوسي، وهي تلتقي برواية الشنتمري عنده، وكأنه هو الآخر عنى في عمله برواية الأصمعي.

وواضح أن هذه الطبعات تعتمد على رواية الأصمعي البصرية، وكانت هناك مخطوطات عدة لرواية ثعلب الكوفية بدار الكتب المصرية، ورأي القائمون فيها أن ينشروا هذه الرواية، مستعينين بنسخة منها قديمة تملكها مكتبة الجمعية الألمانية الشرقية في هلة، وظهر الديوان بهذه الرواية في سنة ١٩٤٤ للميلاد.

وإذن فعندنا لديوان زهير روايتان مطبوعتان: رواية الأصمعى البصرية ورواية ثعلب الكوفية، وتمتاز الأولى بالتشدد، فهي لا تروى سوى ثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة ينهيها الشنتمرى بقوله: "كمل جميع ما رواه الأصمعى من شعر زهير ونصل به بعض الروايات"ويضيف من رواية الكوفيين قصيدتين شك الرواة في ثانيهما[1]. وإذا نظرنا في رواية ثعلب الكوفية وجدناها تضيف عشرات القصائد والمقطوعات، ومن حين إلى حين تنص على أن هذه القصيدة وتاك المقتوعة من

(١) أنظر الديوان (طبعة دار الكتب) ص١٩٣.

رواية حماد أو ابن الكلى المعروفين بكثرة الوضع. ومن ثم كنا لا نستطيع أن نتخذ من الرواية الكوفية أساسًا وثيقًا لدراسة زهير، فنحن نرفضها رفضًا، متخذين من رواية الشنتمري أو بعبارة أخرى رواية الأصمعي أساسًا لبحثنا في زهير وشعره، وإذا كان هناك قصيدة يمكن أن تضاف إلى هذه المجموعة فهي القصيدة التي تليها في رواية الشنتمري، إذ يظهر أنها صحيحة النسب إلى زهير[1]. وقد يكون مما يؤكد صحة شعر زهير برواية الأصمعي أن الشعر كما قدمنا اتصل في ولده أجيالاً، وأن آخرهم العوام نزل البصرة وأقام فيها، وأكبر الظن أن أبناءه ظلوا يروون شعره حتى أسلموه أو أسلمه العوام إلى رواة البصرة وعلمائها.

وإذا أخذنا نفحص رواية الأصمعي التي تحتفظ بثماني عشرة قصيدة ومقطوعة وجدنا الشنتمري[2]. ينقل عنه أنه كان ينكر ثلاثًا منها، هي: (ابلغ بني نوفل عني وقد بلغوا) و (أبلغ لديك بني الصيداء كلهم) و (ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى) وكان أبو عبيدة ينكر مقطوعته: (إن الرزية لا رزية مثلها) ويقول إنها لقراد بن حنش من شعراء غطفان[3]. ولا يبقى لزهير بعد ذلك من رواية الأصمعي سوى أربع عشرة قصيدة ومقطوعة، تضاف إليها القصيدة التي رواها المفضل واحتفظ بها الشنتمري، وهي: (غشيت ديارًا بالبقيع وثهمد). على أنه ينبغي أن نسقط من قصيدته (لمن الديار بقنة الحجر) الأبيات الثلاثة الأولى لأن حمادًا زادها فيها كما مر بنا في حديثنا عن الانتحال. وقد شك الأصمعي في الحكم الملحقة بالمعلقة وقال إنها لصرمة بن أبي أنس[4]. الأنصاري، ويمكن أن يكون لزهير طائفة منها اختلطت على الرواة بطائفة أخرى تماثلها، نظمها صرمة، وسنرى أن زهيرًا كان يكثر من الحكم في شعره.

---

(١) أغاني ١٠/ ٢٨٩ وفي الديوان ص٢١٩ أن المفضل الضبي كان يرويها.

(٢) راجع مخطوطة الشنتمري بدار الكتب المصرية رقم ٨١ أدب ش وفي الخزانة التيمورية بدار الكتب نسخة ثانية برقم ٤٥٠ أدب – شعر تيمور.

(٣) ابن سلام ص٥٦٨.

(٤) المعمرين للسجستاني ص٦٦.

٤

شعـره

لعل الشعر الجاهلي لم يعرف شاعرًا عني بتنقيحه عناية زهير، وقد ذهب القدماء يقولون إنه كان يروي شعر زوج أمه أوس بن حجر الشاعر التميمي المشهور، كما كان يروي شعر طفيل الغنوي[١] المعروف ببراعته في وصف الخيل والصيد، وأيضًا فإنه كان يروي شعر خاله بشامة بن الغدير[٢]. وهم لا يقفون بملاحظاتهم عند ذلك، إذ يقولون إنه خرج ابنه كعباً في الشعر كما خرج الخطيئة[٣].

فنحن إذن بإزاء شاعر ممتاز، عاش للشعر يرويه ويعلمه، أو بعبارة أخرى نحن بإزاء مدرسة يتضح فيها زهير وتلميذاه كعب والحطيئة، وإذا أردنا أن نبحث لزهير عن أستاذ حقيقي تأثره في شعره من بين الثلاثة الذين ذكروهم وجدنا أقربهم إلى شعره أوس بن حجر زوج أمه، فإنه يتأثره في جميع جوانب فنه، يتأثره في الموضوعات التي عالجها وفي طريقة معالجته لها، وفيما يصوغه من معان وصور، وسنشير إلى مواضع ذلك عما قليل.

وإذا أخذنا نستعرض شعر زهير وجدناه ينظم في المديح والغزل ووصف الصيد والهجاء، وفي تضاعيف ذلك يجنح إلى الحكمة ووصف مكارم الأخلاق. وإذا أبدلنا المديح بالتأبين كانت هذه الموضوعات هي نفسها التي يدور فيها شعر أوس، فإنه لم يؤثر عنه مديح إلا أبياتًا متفرقة، وإذا كان مديحه فقد فإن تأبينه خلد على الزمن، وقد أنشدنا منه قطعة في غير هذا الموضع، وهو يلتقي فيه بزهير حين يشيد بفضائل فضالة بن كلدة ومناقبه، التي يعود بها إلى المثل العربي الكريم للمروءة.

وتلمع بين مدائح زهير معلقته، قد نظمها مشيدًا بهرم بن سنان والحارث بن عوف حين سعيًا بالصلح بين ذبيان وعبس فأعلنا أنهما يتحملان ديات القتلى حتى تضع الحرب أوزارها بين

---

(١) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ١/ ١٣٢ وأنظر الشعر والشعراء ١/ ٨٦.

(٢) أغاني ١٠/ ٣١٢.

(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٢/ ١٦٥، ٨/ ٩١ والشعر والشعراء ١/ ٩٣.

القبيلتين المتناحرتين، وتصادف في أثناء ذلك أن قتل الحصين بن ضمضم عبسيًا ثأرًا لأخيه هرم بن ضمضم، وكان قتله ورد بن حابس العبسي، فثارت عبس وشهرت سيوفها تريد أن تعيد الحرب جذعة، وسرعان ما تقدم الحارث لهم بمائة من الإبل وبابنه ليختاروا إما الدية وإما قتل فلذة كبده، فقبلوا الدية ودخلوا في الصلح، وانتهت الحرب الدامية. وهنا نرى زهيرًا يشيد بهذه المكرمة الجليلة ناعيًا على حصين فعلته التي كادت تودى بفكرة الصلح، لاهجًا بالثناء على السيدين وما قدما للقبيلتين من ديات حقنت الدماء، يقول:

يمينًا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حالٍ من سحيل ومبرم[1].

تداركتما عبسًا وذبيان بعد ما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم[2].

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعًا ... بمالٍ ومعروفٍ من الأمر نسلم

فأبحتما منها على خير موطنٍ ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم[3].

عظيمين في عليا معد وغيرها ... ومن يستبح كنزًا من المجد يعظم[4].

وجعلته هذه المأثرة يشيد بالسلم والسلام، فكان بذلك شذوذًا على ذوق الجاهليين وأشعارهم التي تدوي بفكرة الأخذ بالثأر والترامي على الحرب ترامي الفراش على النار. وقد مضى يصور الحرب في صورة بشعة، فيقول:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم[5].

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا أضريتموها فتضرم[6].

---

(١) السحيل: غير المبرم. يريد أنهما خير عشيرتهما في كل أمر، أبرماه أو لم يبرماه.

(٢) منشم: امرأة عطارة كانت في مكة، غمس قوم أيديهم في عطرها وتعاهدوا على الحرب حتى فنا عن آخرهم. يشبه قبيلتي عبس وذبيان بهم.

(٣) يريد أنهما لم يشتركا في تلك الحروب، فهما يؤديان عن غيرهما الديات.

(٤) يريد بعليا معد رؤساءها وأشرافها. يعظم: يصبح عظيمًا.

(٥) المرجم: المظنون.

(٦) تبعثوها: تهيجوها، تضر: من ضرى الأسد إذا تهيأ للفريسة، وأرضى: درب وعود، وتضرم: تشتعل.

فتعرككم عرك الرحـــي بثفالهـــا وتلقح كشافًا ثم تحمل فتتئـــم[1].

فتنتج لكم غلمان أشـــأم، كلهـــم كأحمر عادٍ ثم ترضع فتفطـــم[2].

فتغلل لكم ما لا تغـــل لأهلهـــا قرى بالعراق من قفيزٍ ودرهـــم[3].

وأنت تراه يصور الحرب في صور مخيفة قبيحة، فهي تارة أسد ضار، وتارة ثانية نار مشتعلة، وتارة ثالثة رحي تطحن الناس، وتارة رابعة تلد، ولكنها لا تلد إلا ذراري شؤم. ووسع التهكم، فقال إنهم يربحون منها ما لا يربحه أهل العراق من الغلال والدراهم، وهو بذلك يدعو إلى السلام وأن يتحول العرب من هذه الحروب والمعارك الطاحنة إلى حياة السلم الوادعة الآمنة التي تنتشر فيها الأخوة والمحبة والرحمة. ونراه يصور ما هم فيه من بوار تصويرًا بديعًا، فيقول:

رعوا ما رعوا من ظمئهم ثـــم أوردوا غمارًا تسيل بالرمـاح وبالـــدم[4].

فقضوا منايا بينهم ثم أصـــدروا إلى كلأٍ مستوبـلٍ متوخـــم[5].

فهم بحروبهم المستعرة كأنهم يرعون مراعي وخيمة وبيلة في سلمهم. وسرعان ما يردون موارد لا تشفي غليلهم، موارد تزخر بالرماح والدماء.

نحن إذن بإزاء شخصية ممتازة من شخصيات الشعر الجاهلي شخصية فيها بر ورحمة وفيها نزعة قوية إلى الخير. وليس معنى ذلك أنه تخلص في مديحه لهرم ابن سنان وابن عمه الحارث بن عوف من الصورة الجاهلية التي تشيد بالشجاعة والكرم المتهور، فنحن نراه في قصيدة ثانية يتحدث عنهما وعن عشيرتهما على هذه الشاكلة:

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهـــم طوال الرماح لاضعاف ولا عـــزل[1].

---

(١) تعرككم: تطحنكم؛ الثفال: جلد يجعل تحت الرحي حين تطحن، ومن أجل ذلك ذكره، يريد أنها طاحنة. وتلقح كشافًا: تحمل كل عام، وذلك أردأ النتاج. تتئم: تلد توءمًا.

(٢) أشأم: مشئوم، وأحمر عاد: أراد أحمر ثمود وهو قدار عاقر الناقة، وكان شؤمًا لقومه.

(٣) القفيز: مكيال في العراق.

(٤) الظمأ: ما بين الوردين أو الشربتين، والغمار: المياه الكثيرة.

(٥) أصدروا: رجعوا ضد أوردوا، مستوبل: مستثقل، ومثلها متوخم أي إنه كريه تعافه الإبل.

بخيلٍ عليها جنــة عبقريــة جديرون يومًا أن ينالوا فيستعلــوا

وإن يقتلوا فيشتفي بدمائهــم وكانوا قديمًا من مناياهم القتــل

عليها أسود ضاريات لبوسهــم سوابغ بيض لا تخرقها النبــل[٢].

إذا لقحت حرب عــوان مضــرة ضروس تهر الناس أنيابها عصــل[٣].

قضاعية أو أختهــا مضريــة يحرق في حافاتها الحطب الجــزل[٤].

هم خير حي من معد علمتهــم لهم نائل في قومهم ولهم فضــل[٥].

وهو يصف سيدي بني مرة وعشيرتيهما بالشجاعة ونجدة من يستغيث بهم، حتى ليكادون يطيرون إليه طيرانًا بسوابقهم وخيلهم وكأنهم جنة. وأنظر إليهم حين تدور المعارك فستراهم أسودًا ضارية، لا يرهبون الموت، حين تشتد الحرب وتعض الناس بأنيابها وتحرقهم نيرانها. وهم يحاربون في كل مكان، لا يخشون أحدًا، يحاربون قضاعة ومضرًا. وهم يضيفون إلى هذه الشجاعة كرمًا مفرطًا، وفي كل قبيل منهم ثأر، ومن ثم كانوا يشتفي بدمائهم، إنهم خير معد شجاعة وكرمًا فياضًا. ولا يلبث زهير أن يقول:

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفــت ونال كرام المال في الحجرة الأكــل[٦].

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهــم قطينًا بها حتى إذا نبت البقــل[٧].

هنالك إن يستخبلوا المال يخبلــوا وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا[١].

---

(١) العزل: جمع أعزل وهو من سلاح معه.

(٢) لبوسهم سوابغ: لبسهم دروع تامة.

(٣) لقحت: حملت، يريد اشتدت. حرب عوان: مكررة قوتل فيها مرة بعد مرة. ضروس: شديدة. تهر الناس: تخيفهم. عصل: قوية تطحن طحنًا.

(٤) الجزل: الغليظ ضد الرقيق.

(٥) النائل: العطاء.

(٦) السنة الشهباء: المجدبة، الحجرة: السنة شديدة البرد.

(٧) قطينًا: ساكنين.

obeikandi.com

وفيهم مقامات حسان وجوههـــم وأندية ينتابها القول والفعـل[٢].

على مكثريهم رزق من يعتريهـــم وعند المقلين السماحة والبـذل[٣].

وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهـــم مجالس قد يشفي بأحلامها الجهل[٤].

وإن قام فيهم حامل قال قاعـــد رشدت؛ فلاغرم عليك ولا خـذل[٥].

وما يك من خيرٍ أتوه فإنمـــا توارثـه آبـــاء آبائهـم قبـل

وهل ينبت الخطى إلا وشيجـــه وتغرس إلا في منابتهـا النخـل[٦].

وهو يستمر هنا في مديحه لهم بالكرم في السنين المجدية، حتى إن الناس ليرحلون إليهم ويقطنون حول خيامهم، وكلما سألوهم شيئًا وهبوه لهم، وهم في أثناء ذلك يقامرون بخير إبلهم، حتى يطعموها السائلين والمحتاجين. ولما استم هذه الصورة وصفهم بجمال الوجوه وجمال الكلام في مجالسهم، ولم يخل مكثرًا ولا مقلا منهم من سماحة وفضل وبر. وأشاد بمجالسهم، وأنهم عقلاء حلماء يشفون بآرائهم الصائبة جهل الجهلاء. وهم متعاونون، إن حمل منهم أحد حمالة لم يخذلوه، بل أعانوه. وذكر فضل آبائهم، وأحسابهم، فقال إنهم ورثة مجد قديم توارثه الأبناء عن الآباء، وساق دليلاً على ذكاء الفروع بذكاء الأصول من الرماح والنخيل، فلا يولد الكريم إلا في البيت الكريم.

وظل زهير على شاكلة هذه القصيدة وسابقتها يدبج مدائحه في هرم بن سنان، ومن أروعها داليته التي رواها المفضل الضبي والتي يقول فيها مصورًا كرمه وشجاعته وفصاحته وسبقه إلى المآثر المحمودة:

---

(١) استخبال المال: أن يسألوهم شيئًا فيعدوهم إياه. وييسروا: يتقامروا. يغلوا: يختاروا سمان الإبل.

(٢) المقامات والأندية: المجالس.

(٣) يعتريهم: ينزل بهم.

(٤) الجهل: الحمق.

(٥) الحامل: الذي يحمل الحمالة، وهي الدية، ويريد أي مغرم.

(٦) الخطى: الرماح، ووشيجه: أعصانه.

سواء عليه أي حيـــنٍ أتيتـــه أساعة نحسٍ تتقي أم بأسعـــد[١].

ومدره حربٍ حميها يتقي بـــه شديد الرجام باللسان وباليـــد[٢].

إذا ابتدرت قيس بن عيلان غايـــة من المجد من يسبق إليها يســـود

سبقت إليها كل طلقٍ مبـــرز سبوقٍ إلى الغايات غير مجلـــد[٣].

فلو كان حمد يخلد الناس لم تمـــت ولكن حمد الناس ليس بمخلـــد

فهو يعطى في السعة وفي القلة، ويدفع عن قومه بلسانه وبيده وسلاحه، وإذا تسابق الناس إلى غاية من غايات المجد كان السابق المجلي، ولو أن حمدًا يخلد به مستحقه لكان هرم أول خالد لكثرة مناقبه ومكارمه. وله فيه قصيدة رائية بديعة يقول في تضاعيفها:

دع ذا وعد القول في هـــرمٍ خير البداة وسيـــد الحضـــر

ولنعم حشو الدرع أنـــت إذا دعيت نزال ولج في الذعـــر[٤].

حدب على المولى الضريـــك إذا نابت عليه نوائـــب الدهـــر[٥].

ويقيك ماوقي الأكارم مـــن حوبٍ تسب به ومـــن غـــدر[٦].

ولأنت تفرى ما خلقـــت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفـــرى[٧].

والستر دون الفاحشـــات ومـــا يلقاك دون الخيـــر من ستـــر

---

(١) يريد بساعتي النحس والسعد أوقات القلة والكثرة في المال.

(٢) المدره: المدافع عن قومه. وحمي الحرب: شدتها. والرجام: المراماة في الحرب وفي الخطب والكلام.

(٣) الطلق هنا: المعطاء، وأصله الفرس السابق الذي لا يلوي على شئ. المجلد: الذي يضرب ويجلد. والتشبيه واضح.

(٤) الدعاء في الحرب نزال: حين تشتد فيتداعى الفرسان بالنزول عن الخيل والتقارع بالسيوف. ولج في الذعر: اشتد الخوف.

(٥) الضريك: الفقير المجهد.

(٦) الحوب: الإثم.

(٧) تفرى: تقطع. يخلق: يقدر يريد أنه إذا عزم على أمر أنفذه.

أثنى عليك بما علمــت ومــا سلفت في النجــدات والذكــر

وعلى هذا النحو يبدئ ويعيد في هرم، وقد تراءى له في الصورة المثالية للسيد البدوي الجاهلي، فهو شجاع في معترك الحرب وهو كريم في معترك المسغبة والجوع، وليس بفحاش ولا غادر، وإذا صمم اندفع يمضي ما صمم عليه، لا يستره عن الخير ستر، بينما تقوم الأستار بينه وبين كل فاحشة. وشاعرنا يثنى عليه بما عرف من فضله وبما قدم من مآثر النجدة وإغاثة الضعفاء واحتمال كل بلاء. ودائمًا تلقانا في مدائحه لهرم هذه المثالية الرائعة، بل هذه القطع المتوهجة، ومن رائع ما قاله فيه:

قد جعل المبتغون الخير في هــرمٍ والسائلون إلى أبوابــه طرقــا

إن تلق يومًا علــى علاته هرمــًا تلق السماحة منه والندى خلقــًا

ليث بعثر يصطــاد الرجــال إذا ما كذب الليث عن أقرانه صدقــًا[1].

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنــوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا[2].

هذا وليس كمن يعيا بخطبتــه وسط الندى إذا ما ناطق نطقــًا

فهو لكرمه الفياض يسعى إليه الناس منكل حدبٍ، ويسلكون إلى أبوابه كل طريق، حتى لقد أصبحت الطرق إليه مذللة ممهدة، وهو يجزل لهم في العطاء حتى حين تضيق ذات يده. وهو يجمع إلى الكرم المفرط الشجاعة المفرطة، حتى ليتفوق على الليث في جرأته وطلبه لفريسته، إنه يطعن الطعنات النجلاء، وما يزال على ذلك حتى تنحسر غمرة الحرب، فإذا كان السلم رأيته وسط الندى يبهرك بمقوله كما يبهرك بيده وسلاحه وطعنانه ونزاله.

وقد أضفي حللاً من هذا المديح الرائع على سيد بني فزارة حصن بن حذيفة، وكانت له مواقع مأثورة في حروب قومه مع عبس وغيرها من القبائل، وفيه يقول:

---

(١) عثر: موضع. كذب الليث: نكل عن لقاء أقرانه.

(٢) أرتموا: تراموا بالنبل، اطعنوا: تطاعنوا بالسيوف. اعتنق قرنه في الحرب: أخذ بعنقه، كناية عن قتله. يقول إذا ترامى المتحاربون بالنبال أبي هرم إلا أن يطعن بسيفه، وإذا تطاعنوا ضرب بسيفه ضربات مميتة وإذا ما تضاربوا صرع خصومه. فهو سابق في كل حال.

وأبيض فياض يــداه غمامــة ... على معتفيه ما تغب فواضلــه[1].

بكرت عليه غــدوة فرأيتــه ... قعودًا لديه بالصريم عواذلــه[2].

فأقصرن منه عــن كريمٍ مــرزأٍ ... عزومٍ على الأمر الذي هو فاعلــه[3].

أخى ثقة لا تتلـف الخمر مالــه ... ولكنه قد يهلك المال نائلــه[4].

تراه إذا مــا جئتــه متهلــلاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائلــه[5].

وهو يمدحه بنقائه من العيوب وأنه كريم مفرط في كرمه حتى لتشبه يداه سحابة، فما تزالان تهطلان على قاصديه بالعطايا، وعبثًا يهتف به العواذل أن يكف عن كثرة نواله. إنه مثال للرجل الفاضل الذي لا ينفق أمواله في لهو إنما ينفقها في الصنيع الجميل. وإنه ليقبل على معتفيه بالبشر والطلاقة، حتى ليكادون يظنون أنهم المسئولون لا السائلون. وظل بعد ذلك يمدحه بحسن جداله للخصوم ومنطقه الصائب وكياسته وحمله، وأشار إلى وراثته الطيبة عن آبائه فهو شريف حسيب، كما أشار إلى بلائه في حروبه مع الغساسنة.

وهذه القطع المختلفة التي أنشدناها من مديحه تدل على براعة واضحة، فقد كان يحسن التعبير عما في نفسه، وكان يحرص على الاقتصاد في القول فلا يسرف ولا يغلو، بل يمثل ممدوحه بخصاله التي كان يشغف بها الجاهليون ويرونها أمارة السيادة والشرف. ولاحظ ذلك قديمًا عمرو بن الخطاب، فقال: "كان لا يمتدح الرجل إلا بما يكون فيه[6]" فهو يعتدل في الثناء، وهو يمثل شخصية البدوي الحقيقي الذي يحيط كلامه بالصدق والبساطة، وإذا أحس إزاء صفة من

---

(١) المعتفون: السائلون. الفواضل: العطايا. وأبيض كناية عن نقائه من المساوئ. وتغب: تنقطع.

(٢) الصريم: الصباح. عواذله: لائموه.

(٣) أقصرن: كففن. مرزأ: مصاب في ماله لكثرة ما يبذل منه.

(٤) النائل: العطاء.

(٥) متهللاً: طلق الوجه.

(٦) أغاني ١٠/ ٢٩٠.

الصفات أو معنى من المعاني بأنه يكاد يخرج عن حده أحاطه بما يجعل قوله مقبولاً فيقدم لفظة "لو" ونحوها حتى لا يتجاوز القصد، كما نرى في قوله يصف هرمًا وأمجاده:

لو نال حي من الدنيــا بمكرمــة أفق السماء لنالت كفــه الأفقــا

وقوله:

لو كنت من شيء ســوى بشــرٍ كنت المنــور ليلــة البــدر

فهو لا يطلق القول في مثل هذين المعنيين إطلاقًا، بل يجعلهما في حيز "لو" حتى يخرج من باب المبالغة الذي أوشك على الدخول فيه.

وكان يقدم لقصائده بالغزل والتشبيب، متبعًا سنة الجاهليين في الوقوف بالأطلال وذكر الديار، ونحس عنده إحساسًا واضحًا بأنه لم يكن ممن شغف الحب قلوبهم، فهو يتغزل، كي يرضى سامعيه، لا لكي يرضى نفسه، وبعبارة أخرى هو يتغزل أخذًا بتقليد متسبع، ولذلك نراه يختم غزله أحيانًا بقوله: "فعد عما ترى" أو "دع ذا" كأنه يريد أن يكف قلبه عن مثل هذا الحب الذي لا يتلاءم مع وقاره. وقد يلعن في أول قصيدته إعلانًا أن قلبه قد انصرف عن صاحبته على شاكلة قوله:

صحا القلب عن سلمى وقد كادلا يسلــو وأقفر من سلمى التعانيق فالثقــل[1].

ولعل من الطريف أن أستاذه أوس بن حجر كان يشركه في هذا الجانب، فهما جميعًا لا يتغزلان للغزل، وإنما يتغزلان جريًا على التقاليد. وقد يلم زهير بأثر الحب في النفس فيبدع في تصويره، وهو في هذا التصوير لا يمثل عاطفة ولا مشاعر حقيقية، وإنما يمثل قدرته الفنية كقوله في وصف دموعه:

كأن عيني وقد سال السليل بهــم وجيرة ما هم لو أنهم أمــم[2].

غرب على بكرةٍ أو لؤلؤ قلــق في السلك خان به رباته النظــم[1].

---

(١) التعانيق والثقل: موضعان.

(٢) سل السليل بهم: السليل: واد. وسأل بهم: ساروا سيرًا سريعًا. وما في قوله ما هم زائدة. وأمم: قريبون يزارون.

فهم قد ساروا سيرًا سريعًا، فأبعدوا ولو كانوا جيرة لقصدهم بالزيارة، وإن دموعه لتتساقط من عينه تساقط الماء من الغرب أو الدلو، أو تساقط اللؤلؤ من عقد انقطع سلكه. وبهاتين الصورتين البديعتين صور زهير الدموع، وهي ليست دموع حب، وإنما كل ما في الأمر أنه شاعر يعرف كيف يصور دموع الحب. وبهذا القياس نفسه تصويره لأسماء في قوله:

قامت تراءى بذي ضالٍ لتخزنني ... ولا محالة أن يشتاق من عشقا[٢].

بجيد مغزلةٍ أدماء خاذلةٍ ... من الظباء تراعي شادنا خرقًا[٣].

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت ... من طيب الراح لما يعد أن عتقا[٤].

شج السقاة على ناجودها شبمًا ... من ماء لينة لا طرفًا ولا رنقا[٥].

هو يصور جيدها بجيد ظبية بيضاء، امتلأ قلبها بحب ابنها، فهي عاكفة عليه، كما يصور ريقها بخمر معتقة مزجت بالماء لشدتها وحدتها. وهما صورتان أريدتا لأنفسهما، أو بعبارة أخرى رسمهما زهير ليدل سامعيه على قدرته في التصوير، أما بعد ذلك فلا عاطفة ولا حب حقيقي، ولذلك يكرر دائمًا أن قلبه صحا عن حبه، وأنه راجع نفسه فكفت عن الهوى وما يتبع الهوى، على شاكلة قوله:

لقد طالبتها ولكل شيءٍ ... وإن طالت لجاجته انتهاء

فهو ليس من العشاق ولا ممن يشغلون أنفسهم بالغزل وبيان لوعة الحب، وإنما هو يتحدث في ذلك مترسمًا سننًا موضوعة كي يظهر قدرته على التصوير الفني. ولعله من أجل ذلك ملأ مقدماته

---

(١) الغرب: الدلو. قلق: لا يستقر لانقطاع الخيط. رباته: صواحبه. النظم: جمع نظام وهو الخيط أو السلك.

(٢) تراءى: تتبدى وتظهر. وذو ضال: موضع به الضال وهو السدر.

(٣) الجيد: العنق، مغزلة: الظبية التي معها غزال. أدماء: بيضاء. خاذلة: مقيمة على ولدها لا تتبع الظباء الشادن: الذي شدن أي تحرك ولم يقو بعد. الخرق: الضعيف.

(٤) الكرى: النوم. اغتبقت: من الغبوق وهو شرب الليل، لما يعد أن عتقًا. يريد أن الخمر معتقة ولم تفسد.

(٥) شج: صب. الناجود: أول ما يخرج من الخمر أو إناؤها. الشبم: الماء البارد لينة: اسم بئر. الطرق والرنق: الكدر.

obeikandl.com

الغزلية بوصف الظعن، وكأنه يريد بها أن يتلافي ما يفوته من وصف الحب والصبابة على نحو ما رأينا عند امرئ القيس، وفي الوق نفسه يريد يتبع صاحبته وصواحبها وهن راحلات في نجد مع عشيرتهن من واد إلى واد، محاولاً أن يحفر الصورة في أذهاننا حفرًا على نحو ما نجد في معلقته إذ يقو:

تبصر خليلي هل ترى من ظعائنٍ ... تحملن بالعلياء من فوق جرثـم[1].

علون بأنماطٍ عتاقٍ وكلةٍ ... ورادٍ حوشيها مشاكهـة الـدم[2].

ووركن في السوبان يعلون متنـه ... عليهن دل الناعـم المتنعـم[3].

وفيهن ملهي للصديـق ومنظـر ... أنيق لعين الناظـر المتوسـم[4].

بركن بكورًا واستحـرن بسحـرةٍ ... فهن لوادي الرس كاليد للفـم[5].

جعلن القنان عن يميـن وحزنـه ... ومن بالقنان من محل ومحـرم[6].

ظهرن من السوبان ثـم جزعنـه ... على كل قيني قشيبٍ ومفـأم[7].

كأن فتات العهنِ فـي كل منـزلٍ ... نزلن به حب الفنا لـم يحطـم[8].

فلما وردن الماء زرقًـا جمامـه ... وضعن عصى الحاضر المتخيـم[9].

---

(١) الظعائن: النساء الراحلات في الهوادج. العلياء: اسم موضع. جرثم: ماء لبني أسد أحلاف ذبيان.

(٢) الأنماط: الستائر على الهوادج. وراد: حمراء. مشاكهة: مشابهة.

(٣) وركن: ثنين أرجلهن للراحة. والسوبان: واد في ديار بني تميم. متنه: ظهره. دل الناعم: أثر النعمة.

(٤) المتوسم: المتفرس في الوجه.

(٥) بكرن: رحلن صباحًا. استحرن: رحلن سحرًا. كاليد للفم أي إن ما يقصدنه لا يخطئنه كما لا تخطئ اليد الفم.

(٦) القنان: جبل لبني أسد. حزنه: أرضه. الصعبة الغليظة. المحل: الحليف ضد المحرم.

(٧) جزعنه: قطعنه. القيني: الرحل. قشيب: جديد. مفأم: واسع رحب.

(٨) العهن: الصوف. حب الفنا: عنب الثعلب.

(٩) جمامه: سطحه ومجتمعه. ووضع العصى كناية عن الإقامة.

obeikandi.com

وواضح أنه يصور الرحلة التي سلكتها ظعن صاحبته، وهن يعلون الروابي ويهبطن الوديان، وعلى هوادجهن الكلل والستائر الحمراء وعلى وجوههن دلال النعمة، والأصدقاء من الشباب يطلبونهن ليملئوا النظر بحسنهن ويتمتعوا برؤيتهن، وهن يقطعن واديًا إثر واد، ويمررن على منازل الأحلاف والأعداء، يأخذن في طريق ويعدلن عن طريق، وفي أثناء ذلك ينزلن ثم يرحلن وقد خلفن وراءهن فتات الصوف المتساقط من هوادجهن ورحالهن كأنه حب الفنا، حتى إذا انتهين إلى الماء الذي يطلبنه والمرعى الذي يلتمسه ألقين مع عشائرهن عصا الترحال. وكان زهير يبدع في مثل هذا التصوير الذي يعرض به عرضًا حيًا مليئًا بالحركة ظعن صواحبه، وهي ترحل في الصحراء تلك الرحلة الدائبة، ومعها العشائر، طلبًا للآبار ومساقط الغيث والكلأ. وهو تصوير فحسب، فليس فيه وصف حب، إلا ما قد يأتي عفوًا أو عرضًا كالبيت الرابع من هذه القطعة، وكان حريًا به أن يقف ليصور جمال هؤلاء النساء وأثره في نفسه وفي الشباب من حوله غير أن ذلك لم يكن يعنيه، إنما كان يعنيه الوصف للوصف، فهو يصور قدرته الفنية لا عواطفه ولا مشاعره، ومن غير شك كان يحسن الوصف والتصوير لا بما يسوقه من صور بيانية فحسب، بل بما يعمد إليه من رسم دقائق المنظر الذي يصفه وبما يبث فيه من حياة وحركة.

ولزهير هجاء في بعض القبائل التي كانت تغير على عشيرته، وخاصة في الحارث بن ورقاء أحد بني أسد الذي أغار على قبيلته ونهب غلامه يسارًا وبعض أمواله، وهو فيما صح من هذا الهجاء لا يوغل في الإقذاع وهتك الأعراض إيغال أستاذه أوس والجاهليين من حوله، بل يبقى على مهجوه وعلى نفسه، عامدًا إلى السخرية كقوله في عشيرة حصن من بني عليم الكلبيين:

وما أدري وسوف إخال أدري ... أقوم آل حصنٍ أم نساء

فإن تكن النساء مخبآتٍ ... فحق لكل محصنةٍ هداء[1].

فهن نساء خبثن في الخدور، وينبغي أن يزوجن. وهي سخرية مرة، تحمل كل ما يريد من وصفهم بالجبن. وكان يجد في مثلها ما يكفيه عن الأقذاع المفحش. وكأنما كان الأقذاع لا يتفق ووقاره، فتحاشاه، بينما كان أستاذه أوس من جهة وتلميذه الحطيئة من جهة ثانية يقذعان فيه، وقد

(١) الهداء: الزفاف.

استعار منه تلميذه هذه الأداة أداة السخرية فأشاعها في أهاجيه على شاكلة قوله المشهور في الزبرقان ابن بدر:

دع المكـارم لا ترحــل لبغيتهــا واقعد فإنك أنت الطاعــم الكاســي

فجعل مروءته لا تبلغ به إلا أن يأكل ويلبس. وليس بين أيدينا رثاء مأثور صحيح لزهير.

ولم نتحدث حتى الآن عن أهم الموضوعات التي تتجلى فيها براعة زهير ودقة فنه في التصوير، ونقصد وصف الوحش والصيد، وقد اشاد القدماء كثيرًا ببراعة أستاذه أوس في هذا الباب[1]، ووقفوا عند معان وصور اقتبسها منه زهير، ولكن من الحق أنه نمى هذا الموضوع، بحيث يعد في الطليعة من شعراء الجاهلية في وصف الوحش والصيد. وكأني به كان يخبر اللغة خبرة أوسع من خبرة أستاذه، وكان له خيال دقيق ساعده على تجسيم الصور وتمثيل الحيوان بكل ما يتصل به من منظر وهيئة وحركة، وهو يعرض علينا ذلك تارة في بيت أو أبيات قليلة، وتارة في قطع كبيرة، وكأننا إزاء شريط يعرض في دار من دور الخيالة، واقرأ له هذا البيت في معلقته يصف رسوم دار صاحبته، وقد ألم بها بعد عشرين عامًا، فلم يجد بها إلا بقر الوحش والظباء، يقول:

بها العين والآرام يمشيـن خلفــة وأطلاؤها ينهضن من كل مجثــم[2].

وهو بيت واحد، ولكنه عرف كيف يعرض علينا منظر البقر والظباء في بعض مواضع البادية عرضًا كاملاً إذ نتمثلها وهي تمشي في جهات متضادة، وأطلاؤها أو أولادها تنتشر هنا وهناك، ناهضة من كل موضع. وأنظر إليه يصور ناقته بظليم في بيتين، يودعهما وصفًا دقيقًا له إذ يعرض هيئته وسرعة حركته وذعره الدائم وانطلاقه المستمر في الصحراء كأنه مجنون لا يلوي على شئ، يقول:

كأن الرحل منها فــوق صعــلٍ من الظلمان جوجــوه هــواء(٣).

أصك مصلم الأذنيــن أجنــى لــه بالســي تنــوم واء(١).

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي ٢/ ٢٣٥.

(٢) العين: بقر الوحش، والآرام: الظباء البيض. خلفة: من جهات متضادة. الأطلاء: أولاد الوحش. مجثم: مربض.

(٣) الصعل: صغير الرأس. الظلمان: جمع ظليم. الجؤجؤ: الصدر. هواء: فارغ.

وتلك صورة كاملة للظليم أو ذكر النعام فهو صغير الراس متقارب العرقوبين ليس لأذنيه حجم. وهو ليس ظليمًا صغيرًا فقد أدرك، وهو هناك يرعى في السي بعض أشجار البادية. وماذا بقى من هيئة الظليم؟ إنه لم يبق شيء إلا سرعته وحركته الدائبة، وهو يصورها تصويرًا دقيقًا في قوله "جؤجؤه هواء" فصدره فارغ كأنما لا قلب أو لا عقل له، فهو يعتسف الصحراء اعتساف مجنون يسرع في العدو هربًا من كل شبح، فلا يكاد يقف. ولما تمت له هذه الصورة بتفاصيلها الدقيقة الجسيمة والنفسية انتقل يصور ناقته في سرعتها بحمار وحش يسوق أتنه سوقًا عنيفًا ليرد بها ماء، وهو لا يغفل عنها، وهي خاضعة لمشيئته، يدعوها في كل فجر فتجيب، وصور هذا الدعاء تصويرًا بديعًا، فقال:

كأن سحيله فـي كـل فجـرٍ ... على أحساء يمئـودٍ دعـاء[٢].

فهو ينادي أتنه كل صباح كي يرد بها الحياض والمناهل، وهي تلبيه. وكأنه يرسم بذلك صورة عشيرة تتبع شيخها حين يدعوها. واقرأ له هذه القطعة الطويلة في وصف النبات والمطر والفرس والصيد فستلقاك خصائصه في التصوير مجتمعه:

وغيثٍ من الوسمى حـو تلاعـه ... أجابت روابيه النجاء هواطلـه[٣].

هبطت بممسود النواشـر سابـحٍ ... ممر أسيل الخد نهدٍ مراكلـه[٤].

تميمٍ فلوناه فاكمـل صنعـه ... فتم وعزته يـداه وكاهلـه[٥].

أمينٍ شظاه لم يخـرق صفاقـه ... بمنقبةٍ ولم تقطـع أباجلـه[١].

---

(١) أصك: مقارب العرقوبين. مصلم: مقطوع. أجنى من الجنا، وهو إدراك الثمار ونضجها. السي: موضع. التنوم والآء من أشجار الهادية.

(٢) السحيل: نهيق الحمار. يمئود: موضع. الحساء: جمع حسي، وهو الموضع كثير المياه.

(٣) الغيث: المطر. الوسمي: أول الغيث. حو: سواداء. تلاعه: مسايله، وهي سوداء لسواد أطراف النبات. النجاء: المرتفعة.

(٤) النواشر: عصب الذراع. ممسود: مفتول: ممر: محكم الخلق. أسيل: ناعم. نهد: ضخم. المراكل: مواضع ركل الفارس من الفرس يريد أنه ضخم الجوف.

(٥) تميم: تام الخلقة. فلوناه: فطمناه. عزته: قوته.

إذا ما غدونا نبتغي الصيـد مـرة ... متى نره فإننـا لا نخاتلـه[٢].

فبينا نبغى الصيد جاء غلامنـا ... يدب ويخفي شخصه ويضائلـه[٣].

فقال: شياه راتعـات بقفـرةٍ ... بمستأسد القريان حو مسايلـه[٤].

ثلاث كأقواس السراء ومسحـل ... قد أخضر من لس الغمير جحافله[٥].

وقد خرم الطراد عنـه جحاشـه ... فلم تبق إلا نفسه وحلائلـه[٦].

فقال: أميري ما ترى رأي ما نـرى ... أنختله عن نفسه أم نصاولـه[٧].

فبتنا عراةً عند رأس جوادنـا ... يزاولنا عن نفسه ونزاولـه[٨].

ونضربه حتى اطمـأن قذالـه ... ولم يطمئن قلبه وخصائلـه[٩].

وملجمنا ما إن ينـال قذالـه ... ولا قدماه الأرض إلا أناملـه

فلأيًا بلأي ما حملنا وليدنـا ... على ظهر محبوك ظماء مفاصله[١٠].

فقلت له: سدد وأبصر طريقـه ... وما هو فيه عن وصاتي شاغله

وقلت: تعلم أن للصيد غـرةً ... وإلا تضيعها فإنك قاتله[١].

---

(١) أمين: قوى. شظاه: عظامه اللاصقة بالذراع. الصفاق: الجلدة الباطنة وراء البشرة، لم يخرق بمنقبة: لم يداو بآلة بيطار. الأباجل: عروق في اليد.

(٢) لا نخاتله: لا نأخذه بالخديعة.

(٣) نبغى: نبتغي ونطلب. يدب: يمشي راجلاً ببطء. يضائل: يصغر.

(٤) الشياه هنا: الأتن. القريان: مجاري الماء. مستأسد النبت: ما طال منه. حو: سوداء.

(٥) السراء: شجر تصنع منه القسي. المسجل: حمار الوحش. جحافله: شفاهه. الغمير: نبت. لسه: أكله.

(٦) خرم: نفر وأبعد. حلائله: زوجاته من الأتن.

(٧) نخلته: نخادعه. نصاوله: نجاهره.

(٨) عراة: في أرض عارية من الشجر. وقيل عراة من العوراء: وهي الرعدة عند الحرص. يزاولنا: يدفعنا لشدة نشاطه.

(٩) القذال: مؤخر الرأس. خصائله: لحم العصب.

(١٠) محبوك: متين. ظماء مفاصله: قليلة اللحم لا تترهل.

obeikandi.com

فتبع آثار الشيــاه وليدنــا كشؤبوب غيثٍ يحفش الأكم وابله[٢].

نرظت إليه نظــرة فرأيتــه على كل حال مرة هو حامله[٣].

يثرن الحصا في وجهه وهو لاحــق سراع توالية صياب أوائله[٤].

فرد علينا العير من دون إلفــه على رغمه يدمى نساه وفائله[٥].

وهو في مستهل هذه الأبيات يصف مطرًا يتساقط على بعض المرتفعات والوهاد، وقد انتشر فيها النبات الضارب إلى السواد، وهو يقبل مع بعض رفاقه على فرس محكم الخلق، فطم منذ عهد قريب، فهو أشد ما يكون قوة، لم يصبه مرض ولا علة. ويعرض علينا هيئته وخلقته كاملة. وسنراه بعد قليل يصور أحاسيسه وهواجسه، فتكتمل صورتيه الجسدية والنفسية. ويستطرد إلى وصف الصيد فيذكر أن غلامه الذي ذهب يستطلع الحيوانات الوحشية في الصحراء جاء يدب ويخفي شخصه ويضائله. وبهذه العبارة الموجزة رسمه لنا رسمًا دقيقًا، رسم حركته وسيره وأنه كان يحاول أن يخفي شخصه حتى لا تفزع الوحش. وأخبرهم أنه رأي غير بعيد ثلاث أتنٍ وحشية، وهي ضامرة كأقواس السراء، ومعها حمارها وقد أقبل على الطعام من النبات حتى أخضرت مشافره. واخضرار المشافر لمسة من لمسات زهير الذي كان يبتغي الدقة في التصوير بما يعطي من ألوان الأشياء وما يذكر من تفاصيلها.وينتقل فيحدثنا أنهم باتوا يروضون الجواد، حتى كان الصباح، فألجمه الغلام، وهو لا يكاد يطوله لضخامته.

وزهير يوصيه كيف يتبع فريسته. ويبدع زهير في هذا الجزء من وصفه، فهم منذ أخبرهم الغلام بخبر الصيد مفزعون لشدة ما هم فيه من حرص على طلب الصيد والحصول عليه، وقد أحسن الجواد ما هم فيه وما ينتظره في الصباح الباكر، فأخذه الخوف من جميع أطرافه، فهو يجاهدهم وهم يجاهدونه ويضربونه، حتى اطمأن وأمكنهم منه، غير أن قلبه وأعصابه لم تطمئن، فلا يزال

---

(١) الغرة: الغفلة.

(٢) الشؤبوب: الدفعة من المطر. يحفش يملأ.

(٣) يقول إن الفرس كان يحمل في كل حالة الغلام، يحمله على الطمع وعلى اليأس.

(٤) التوالي: الأواخر يريد الرجلين والعجز. ويقصد بأوائله يديه وصدره. وصياب: سراع.

(٥) العير: حمار الوحش. والنسا والفائل: عرقان.

يستحوذ عليه الفزع والخوف الشديد. ولم يكن الغلام من هذه الحالة النفسية غير بعيد، فقد كان زهير يوصيه كيف يطارد الصيد وهو في شغل عنه بمخاوفه وما ينتظره في تلك المعركة. وزهير بهذا كله يعد مصورًا بارعًا، إذ يصور الهيئات الجسدية والأحوال النفسية فيما يصفه، وكأنما كانت له عين كبيرة تعرف كيف تلتقط قسمات الجسد وسرائر النفس، لانفس الإنسان وحده بل أيضًا نفس الحيوان وما يلم بهما جميعًا من وساوس وهواجس. وقد مضى يصور ماردة الغلام- ولعله غلامه يسار- للأتن وحمارها وكيف انصب عليها كأنه شؤبوب أو صاعقة من السماء، وهي تثير الحصى في وجه فرسه، والفرس لا ينثنى عنها حتى أفرد الحمار من دون صواحبه وصاده الغلام، وجاء به جريحًا تنزف دماؤه.

وواضح أن زهيرًا استم في هذا الوصف الدقيق كل براعته سواء من حيث توشيته بالتشبيهات، أو من حيث ملؤه بالحياة والحركة الجسدية والنفسية. وله قطعة لا تقل عن هذه القطعة جمالاً وروعة في قصيدته الدالية التي رواها المفضل الضبي، وفيها يصف بقرة وحشية شبه بها ناقته في سرعتها، ومضى يستكمل وصفها مستطردًا إلى مطاردة الصائد لها بينما تفترس السباع أحد أفلاذ كبدها، يقول:

كخنساء سفعاء الملاطم حرةٍ ... مسافرةٍ مزءودةٍ أم فرقد[1].

غدت بسلاحٍ مثله يتقي به ... ويؤمن جأش الخائف المتوحد[2].

وسامعتين تعرف العتق فيهما ... إلى جذر مدلوك الكعوب محدد[3].

وناظرتين تطحران قذاهما ... كأنهما مكحولتان بإثمد[4].

---

(١) الخنساء: بقوة الوحش سميت بذلك لتأخر أنفها ومثلها الظباء لأنها جميعًا فطس خنس. سفعاء الملاطم: السفع سواد في حمرة. والملاطم: الخدان. مزءودة: مذعورة، مسافرة: ترحل من موضع إلى موضع. الفرقدك ولد البقرة.

(٢) يريد زهير بالسلاح قرنى البقرة. الجأش: الصدر. المتوحد الوحيد المنفرد.

(٣) سامعتين: أذنين. العتق: الأصالة. ومعرفة العتق كناية عن أنهما محددتان منتصبتان. إلى جذر: إلى هنا بمعنى مع، والجذر: الأصل. مدلوك: أملس. والكعوب: جمع كعب وهو ما بين العقدتين في القرن. وزهير يريد بالشطر الثاني وصف قرنيها بأنهما أملسان محددًا الرأس.

(٤) ناظرتين: عينين. تطحران قذاهما: ترميان به وتنفيانه. الإثمد: كحل أسود.

طباها ضحاء أو خلاء فخالفــت إليه السباع في كناسٍ ومرقــد[1].

أضاعت فلم تغفر لها غفلاتهــا فلاقت بيانًا عند آخر معهــد[2].

دمًا عند شلوٍ تحجل الطير حوله وبضع لحامٍ في إهابٍ مقــدد[3].

وتنفــض عنها غيب كل خميلــةٍ وتخشى رماة الغوث من كل مرصد[4].

فجالت على وحشيها وكأنهــا مسربلة في رازقي معضــد[5].

ولم تدر وشك البين حتى رأتهــم وقد قعدوا أنفاقها كل مقعــد[6].

وثاروا بها من جانبيها كليهمــا وجالت وإن يجشمنها الشد تجهــد[7].

تبذ الألى يأتينها من روائهــا وإن تتقدمها السوابق تصطــد[8].

فأنقذها من غمرة الموت أنهــا رأت أنها إن تنظر النبل تقصــد[9].

نجاء مجد ليس فيــه وتيــرة وتذبيبها عنها بأسحم مذــود[10].

---

(١) طباها: دعاها. ضحاء: رعي الضحى. خلاء: خلو المكان. فخالفت إليه السباع: أي اختلفت إلى ولد البقرة. والكناس: بيت في الشجر تستتر فيه البقر أو تستر أولادها من الحر والبرد.

(٢) أضاعت: تركت ولدها وغفلت عنه. البيان: ما استبانته عند ما رجعت ووجدت بقايا ولدها من بعض الجلود واللحم والدماء. آخر معهد: آخر موضع تركته فيه.

(٣) الشلو: بقية الجسد. البضع: جمع بضعة وهي القطعة. اللحام: جمع لحم. الإهاب: الجلد. المقدد: المشقق المخرق.

(٤) تنفض: تنظر هل ترى ما تكره. الخميلة: الرملة بها شجر. الغوث: قبيلة من طيئ تشتهر برماتها وقناصها.

(٥) جالت: ذهبت وجاءت. الوحشي: الجانب الذي لا يركب منه وهو الأيمن يريد أنها مالت على عطفها الأيمن. مسربلة: لابسة سربالاً وهو القميص. الرازقي: ثوب أبيض. معضد مخطط.

(٦) وشك البين: سرعته، والبين هنا: فقدها لوالدها. الأنفاق: الطرق والمسالك.

(٧) بحشمنها الشد: يكفلنها العدو ويحملنها عليه. تجهد: تسرع وتجتهد.

(٨) تبذ: تسبق. تصطد:تضرب بقنيها ما يتقدمها من الكلاب.

(٩) تنظر النبل: يريد زهير تنتظر أصحابها وهم الرماة. تقصد: تقتل.

(١٠) النجاء: سرعة العدو. الوتيرة: التلبث والانتظار. تذبيبها: دفاعها. الأسحم: الأسود. المذود: قرنها الذي تذود به عن نفسها.

وجدت فألقت بينهـــن وبينهـــا غبارًا كما فارت دواخن غرقــد[1].

بملتئماتٍ كالخذاريـــف قوبلـــت إلى جوشنٍ خاظي الطريقة مسند[2].

وزهير يستهل حديثه عن البقرة بوصفها الجسدي والنفسي فهي خنساء في خدودها حمرة مشربة بسواد، وهي طليقة في الصحراء ترحل من موضع إلى موضع مذعورة فقد خلفت ولدًا لها في كناس، وهي تخشى عليه من السبع والإنسان. وإنها لشاكية السلاح، كأنها معدة خلقة لكفاح أعدائها ونزالهم، فقد برزلها قرنان وإنهما حريان بأن يقياها الخطر ويؤمنا وحدتها وخوفها، إذ هما محددان أملسان كأنهما السيوف القاطعة، ومن ورائهما أذنان ترهف بهما السمع خشية العدو المفاجئ وباصرتان سوداوان كأنهما مكحولتان تحد بهما النظر إلى ما حولها.

وعلى هذا النحو يعرض علينا زهير تلك البقرة بهيئة جسدها وهيئة نفسها، لنستعد إلى ما سيفجؤها من كوارث. وهو يثبت هيئتها في نفوسنا بما يصوره من تفاصيل جسدها ولون خديها وعينيها. ولا يلبث أن يصور لنا فاجعتها في ولدها، وقد أعدنا لذلك منذ البيت الأول، فهي مسافرة، مسرعة في العودة، وقد أخذها الذعر. لقد خرجت تطلب الري والرعي، وعاودها الحنين إلى ولدها، بل عاودها الخوف الشديد، وكأنها تعرف أنها تركته وراءها للسباع، وعادت ويالهول ما رأت، لقد رأت بقايا ابنها من أشلاء وجلود ودماء، والطير تحجل حوله، فأخذها الحزن الشديد. إن أملها في الحياة فقدته. وقد عادت تجري في الصحراء مذعورة تتلفت يمينًا وشمالاً تنظر هل هناك ما تخشاه، وإنها لتخشى رماة عشيرة الغوث الذين تعودوا أن يطاردوها بسهامهم وكلابهم من كل مرصد، ومرت على جانبها الأيمن، كأنها تظنه أكثر أمنًا، وهي تتراءى في لونها الأبيض وقوائمها المخططة كأنها الثوب الناصع الجميل، ولم تكن تدري أن الموت يرصدها، حتى رأت رأي العين رماة الغوث، وقد أخذوا عليها جميع الطرق والمسالك، وأرسلوا عليها كلاب الصيد، فولت مسرعة، والكلاب تلاحقها وهي تارة تسبق أوائلها، وتارة تلحقها الكلاب فتنوشها بقنيها،

(١) جدت: أسرعت في العدو. الدواخن: جمع دخان. الغرقد: شجر.

(٢) الملتئمات هنا: القوائم شبهها بالخذاريف. إلى جوشن: مع صدر. خاظي الطريقة: مكتنز اللحم في أعلى الصدر. مسند: مرتفع.

وما زالت تعدو حتى أفلتت من غمرة الموت يسعفها قرنها الأسود وما أثارته بينها وبين الكلاب من غبار كأنه الدخان. ويصور زهير سرعة قوائمها وخفة حركتها بخذاريف الصبيان التي يديرونها دورانًا سريعًا بخيوط يشدونها إلى أيديهم، وقد سبقه امرؤ القيس إلى هذه الصورة في وصف سرعة فرسه، إذ قال فيه كما مر في غير هذا الموضع:

درير كخذروف الوليد أمره تقلب كفيه بخيط موصل

وقد حاول زهير أن يضيف زيادة جديدة فجعل القوائم ملتئمات متناسقات كما جعلها متقابلات، فهي كخذاريف لا كخذروف واحد، يقابل بعضها بعضًا.

والحق أننا نحس إزاء زهير أنه استوفى كل ما كان ينتظر الشاعر الجاهلي من براعة في التصوير. وكان يحف هذه البراعة بضروب من الوقار تتضح في مدائحه وأهاجيه وغزلياته جميعًا، فهو يحتفظ بكرامته دائمًا، ولعل ذلك ما جعله ينفر من الخمر والميسر كما قدمنا في غير هذا الموضع. واقرأ مدائحه وأنعم النظر فيها فستراه يمثل لك في هرمٍ والحارث بن أبي عوف وحصن بن حذيفة صورة السيد الفاضل، لا من حيث الشجاعة والكرم فحسب، بل أيضًا من حيث الحلم والعفو عن المسئ في العشيرة والدفع بالمعروف من القول والحدب على الفقراء وتجنب الفواحش والآثام. واقترنت هذه الصورة المثالية للسيد الفاضل في شعره بكثير من الحكم والدعوة إلى مكارم الأخلاق. وقد ذيل المعلقة بطائفة من الأبيات التي تذهب هذا المذهب، وقدمنا أن الأصمعي كان يشك فيها ويقول إنها لشاعر أنصاري يسمى صرمة، ويظهر أن حكمًا له اختلطت بحكم لهذا الشاعر، ونستطيع أن نفرد منها له مثل قوله:

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه يطيع العوالي ركبت كل لهذم[1].

إن هذا البيت يتفق وما لاحظناه عنده من ميله إلى إخراج أفكاره ومعانيه في صور متلاحقة. فقد أراد أن يقول من أبي الصلح لم يكن له بد من الحرب، فلم يقل ذلك مباشرة، بل ذهب يبحث عن صورة تمثل الصلح عندهم، وسرعان ما لمعت في خياله عادة كانت معروفة لديهم، وهي أن

(١) الزجاج: جمع زج وهو الحديدة في أسفل الرمح. والعوالي: سنان السيوف والرماح. اللهذم: السنان القاطع. وواضح أنه جعل رفع كعوب الرماح كناية عن الصلح والمسالمة إذ كانت تلك عادتهم في الجاهلية.

يستقبلوا أعداءهم إذا أرادوا الصلح بأزجة الرماح، ومن ثم قال "ومن يعص أطراف الزجاج" يريد "ومن لا يطع الدعوة إلى الصلح والسلام" ومضى يمثل الدخول في الحرب بإطاعة أسنة الرماح والسيوف. وفكرة البيت متصلة بالمعلقة وما تدعو إليه من السلام والاستجابة إلى الصلح. وقد تكون الأبيات التي تتصل بفكرة الحياة والموت صحيحة النسبة إلى زهير لأنها تتصل كالبيت السابق بموضوع القصيدة، كقوله:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

وفي البيت أيضًا صورة بديعة، إذ يشبه الموت بناقة عشواء لا تبصر طريقها، فهي تخبط الطريق خبطًا أعمى ليس له نظام ولا قياس. والتفكير في الحياة والموت بكثر عند زهير كقوله في إحدى قصائده لهرم:

تزود إلى يوم الممات فإنه ولو كرهته النفس آخر موعد

وإذا أخذنا نقرأ في أشعاره لقيتنا فيها حكم كثيرة، وهو ينثرها نثرًا خلال الموضوعات المختلفة التي يلم بها، فمن ذلك قوله:

وكنت إذا ما جئت يومًا لحاجةٍ مضت وأجمعت، حاجة الغد ما تخلو[1].

وقوله الذي أنشدناه:

وهل يُنبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل

وقوله:

كذلك خيمهم، ولكل قومٍ إذا مستهم الضراء خيم[2].

وقوله الذي أنشدناه:

فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت ولكن حمد الناس ليس بمخلد

(١) مضت وأجمعت: مضت حاجة الأمس ودنت حاجة الغد. ما تخلو: يريد: لا يخلو المء من حاجة، فحاجة من عاش لا تنقضي.

(٢) الخيم: الشيمة والخلق.

وقوله:

فإن الحق مقطعــه ثــلاث يمين أو نفــار أو جــلاء[1].

وكان عمر بن الخطاب يعجب بهذا البيت ويتعجب من صحة القسمة فيه، ويقول: لو أدركته لوليته القضاء لحسن معرفته ودقة حكمه[2].

ولعل في كل ما قدمنا ما يوضح مكانة زهير في الشعر الجاهلي، فقد كان شاعرًا من طراز ممتاز، شاعرًا له نظراته في الحياة والأخلاق، وهو إلى ذلك شاعر مصور يحسن أدوات صناعته من جميع وجوهها، فقد تمرس بنماذج أوسٍ وغيره من فحول الجاهلية، ولم يكد ينظم أشعاره حتى ذاع اسمه في القبائل، فالتمسه بعض الشبان يتعلمون عليه هذا الصناعة الدقيقة التي يحسنها إلى أبعد حد، ونبغ منهم الحطيئة، ولقن الشعر ولديه بجيرًا وكعبًا، وطار صيت الأخير في العصر التالي عصر المخضرمين.

نحن إذن بإزاء شاعر ممتاز خبر صناعة الشعر الجاهلي وعرف اساليبها، واستطاع أن يؤدي أجمل صورة لها في لفظه وقوالبه وصيغه، وقد لاحظ القدماء ذلك وعبروا عنه عبارات مختلفة، فقالوا إنه كان يصنع قصائده الطويلة في حول كامل وإنه صنع سبع حوليات[3]، وينسب الجاحظ هذا القول إلى زهير نفسه، فيقول: "كان زهير بن أبي سلمى يسمى كبار قصائده الحوليات، ولذلك قال الحطيئة: خير الشعر الحولي المحكك (يقصد شعر أستاذه وشعره) وقال الأصمعي: زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر، وكذلك كل من جود في شعره ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يُخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة[4]". ويعلق الجاحظ على صنعة زهير وشعره في موضع آخر، فيقول: "من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمتكث عنده حولاً كريتا (كاملاً) وزمنًا طويلاً يردد فيها نظره ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه، اتهامًا لعقله وتتبعًا على نفسه، فيجعل عقله زمامًا على رأيه، ورأيه عيارًا على شعره، إشفاقًا على

(١) النفار: المنافرة إلى شيوخ القبائل للحكم. الجلاء: انكشاف الأمر.

(٢) الصناعتين للعسكري (طبعة عيسى الحلبي) ص٣٤٢.

(٣) الخصائص لابن جني (طبع دار الكتب المصرية) ١/ ٣٢٤.

(٤) البيان والتبيين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/ ١٣.

أدبه، وإحرازًا لماخوله الله من نعمته، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات، ليصير قائلها فحلا خنذيذًا (تامًا) وشاعرًا مفلقًا[1]".

وسواء سمي زهير قصائده الطويلة بالحوليات أو سماها الرواة بهذا الاسم فإن هذه التسمية تدل على مدى ما أحسن به القدماء تلقاء مطولاته، فقد أحسوا فيها بجهد شديد، وتصوروا أن هذا الجهد يستنفد آمادًا بعيدة من الزمن، وتخيلوها حولا كاملاً، ومضوا يسمون زهيرًا والحطيئة وأضرابهما عبيد الشعر لما شعروا عندهم من طول الثقاف والتنقيح والتجويد والتحبير، وكأنهم يلغون حريتهم وإرادتهم، فهم عبيد فن الشعر، يخضعون لإرادته الفنية وما يُطوى في هذه الإرادة من تنسيق محكم للألفاظ والصيغ. ويظهر أن زهيرًا كان يعرف بذلك من قديم، فهم يروون عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول: "زهير شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح أحدًا إلا بما فيه[2]". والمعاظلة بين الكلام المداخلة فيه بحيث لا ينضد نضدًا مستويًا. والحق أن صياغة زهير تستوفي حظوظًا بديعة من صفاء التعبير ونقائه وخلوصه من الأدران التي قد تؤذيه، وارجع إلى القطع التي أنشدناها له في المديح، فإنك ستجدها متوهجة، وما ذلك إلا من دقة التعبير وصقله إلى أبعد غاية وصل إليها شاعر جاهلي، والذي لا ريب فيه أنه كان يستولى على لغته ويسيطر عليها ويجمع منها خير ما فيها من ألفاظ وكلمات، وما يزال ينسقها حتى تتراءى كأنها عقود من الجواهر. وعلى نحو ما كان يستوفي حظوظًا مختلفة من الجمال في عباراته وصيغه كان يستوفي ضروبًا من الإتقان والكمال في موسيقاه، فليس فيها نشاز من إقواء وليس فيها اجتلاب قافية وإكراهها على إحلالها في أماكنها، فقوافيه تتمكن في مواضعها، ومهما ضاق عليه هذا الموضع نفذ منه على أجمل صورة، وانظر إلى قوله في معلقته:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبلـه ولكنني عن علم ما في غـد عمـى

فقد وصل إلى القافية، فوجد نفسه مضيقًا عليه، ولم يلبث أن نفذ إلى كلمة "عمى" فتمم البيت في غير عسرو ولا مشقة. ومن ذلك قوله:

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٩.

(٢) أغاني ١٠/ ٢٨٩.

هم يضربون حبيك البيض إذ لحقــوا لا ينكصون إذا ما استلحموا وحموا[1].

فقد نفذ من الدرب الضيق في القافية، بما جاء به من كلمة "حموا" ولم ينفذ فحسب، فقد استخدم كلمة تتناسق في حروفها مع الفعل السابق لها، فهي كلمة من نفس أسرتها، وهو ما يعبر عنه علماء البيان العربي باسم الجناس، وله أمثلة مختلفة في شعره كقوله الذي أنشدناه:

كأن عيني وقد سال السليل بهــم وجيرة ما هم لو أنهــم أمــم

فقد جانس بين سال والسليل، وتعلق بحرف الميم في ألفاظ الشطر الثاني، فأحدث بينها تلاؤمًا واضحًا. ومن أمثلة الجناس عنده:

وقد قلما إن ندرك السلــم واسعــًا بمال ومعروف من القــول نسلــم

وقوله:

تقي نقي لم يكثــر غنيمــة بنهكة ذي القربى ولا بحقلــد[2].

وعلى نحو ما كان يستخدم الجناس كان يستخدم الطباق، وله أمثلة كثيرة عنده كقوله الذي أنشدناه في وصفه للظعن:

جعلن القنان عن يمين وحزنــه ومن بالقنان من محــل ومحــرم

وقوله:

يمينًا لنعم السيــدان وجدتمــا على كل حالٍ من سحيلٍ ومبــرم

وقوله:

وقد كنت من سلمى سنينًا ثمانيــًا على صير أمرٍ ما يمر وما يحلــو[3].

وقوله الذي أنشدناه:

---

(١) حبيك البيض: طرائقه. البيض: خوذهم في الحرب. استلحموا: من التلاحم والمخالطة في القتال. حموا: أشتد غضبهم.

(٢) النهكة: الإضرار. الحقلد: البخيل السيئ الخلق، يقول إنه لا يكثر ماله بظلم أقربائه، وليس ببخيل لئيم.

(٣) صير أمر: منتهاه وما يصير إليه.

obeikandl.com

ليث بعثر يصطــاد الرجــال إذا ما كذب الليث عن أقرانـه صدقــا

على أن زهيرًا إنما كان يستخدم الطباق والجناس من حين إلى حين فهما ليسا لونين فاقعين في شعره، إنما اللون الفاقع في شعره هو التصوير، إذ كان يودعه كل مهارته، وكان يأبى أن يخرج كثيرًا من أبياته إلا ويوشيها به، بحيث لا نبعد إذا قلنا إنه شاعر التصوير في الجاهلية، ومن ثم كثرت عنده التشبيهات والاستعارات كثرة مفرطة، وكان يسعفه بها خيال متوثب متهيئ ليخرج من جديد ما سمعه من أستاذه أوس وغيره، وليضيف إلى ذلك ثروة من عنده. وثروة خيالية تنعقد فيها مشابهات كثيرة بين الأشياء، وهي مشابهات من شأنها أن تجعلنا نحس بأننا ندخل معه في عالم خيالي حالم، وخاصة حين تلقانا استعاراته وما يملؤها به من أشباح وأرواح، فإننا نستشف معه كثيرًا من الأشياء وعلاقاتها بعضها ببعض، كما نستشف الجمال في داخلها ونشعر بغير قليل من المتاع.

وارجع إلى ما عرضناه من أشعاره فستجد التشبيهات تتراكم فيها، وستراه دائمًا حين يفكر في شيء يلمع في ذهنه نظيره، محاولاً أن يربط بين الشبيه والشبيه بعلاقة لا تنفصم. وهي علاقات ننتقل بينها معجبين، بل هي مشاهد تجلب لنا البهجة والمسرة، إذ كان يعرف كيف يأتي منها بالنادر الطريف على شاكلة قوله الذي أنشدناه في وصفه للظعن وقصدها إلى غايتها:

بكرن بكورًا واستحـرن بسحـرةٍ فهن لوادي الرس كاليــد للفــم

وليس كل ما يلاحظ عنده كثر التشبيهات ولا وقوعه على نوادرها، بل لعل أهم ما يلاحظ أنه يعني بتفصيل التشبيه إذ لا يزال يلح على الصورة التي يعرضها، وكأنه يريد أن يستوفيها بجميع دقائقها وتفصيلها استيفاء، كقوله في وصف بعض صواحبه:

تنازعها المها شبهــًا ودر النـ ـحور وشاكهت فيها الظباء[1].

فأما ما فويــق العقد منهــا فمن أدماء، مرتعها الخلاء[2].

(١) المها: بقر الوحش. شاكهت: شابهت.

(٢) الأدماء: الظبية البيضاء. الخلاء: الموضع الخالي.

وأما المقلتـــان فمـــن مهـــاةٍ وللـــدر الملاحـــة والصفـــاء

فهو لا يشبه صاحبته ببقر الوحش والدر والظباء تشبيهًا عامًا ويمضي، بل يعود إلى تفصيل تشبيهه، فهي تشبه الظباء في جيدها الطويل الجميل وبقر الوحش في سواد عينيها الفاتنتين والدر في ملاحته وصفائه ولمعانه وبهائه.

وإذا كان زهير أتقن لون التشبيه من حيث كثرة الصور والتعمق فيها والإلحاح عليها بالتفاصيل فإنه أتقن لون الاستعارة إتقانًا لعل شاعرًا جاهليًا لم يبلغ مبلغه فيه، وارجع إلى معلقته وإلى صور الحرب التي أنشدناها فإنك تجد الاستعارات فيها تتلاحق، فالحرب أسد ضار، بل هي نار مشتعلة، بل هي رحي تطحن الناس، بل هي ناقة تنتج غلمان شؤم، بل هي أرض مغلة غلة قبيحة ليس فيها منافع للناس إنما فيها الموت الزؤام. وقد مثل- كما مر بنا- حياة العرب في حروبهم الدائرة وما يتخللها من فترات راحة بصورة قوم يرعون مراعي وخيمة، حتى إذا أخذهم الظمأ الشديد وردوا على مياه وخيمة، بل على دماء مسفوحة. ونراه في نفس المعلقة يصف شجاعًا ويصوره في صورة أسد فيقول:

لدى أسدٍ شاكي السلاح مقـــذفٍ له لبد أظفـاره لـــم تقلـــم[1].

وواضح أنه استتم في استعارته صورة الأسد بشعره المسترسل على منكبيه وأظفاره المسنونة التي لم تقلم يومًا والتي إن نشبت في شيء أتت عليه.

ولم يكن زهير يكثر من الاستعارة في شعره فحسب، بل كان أيضًا يحاول أن يأتي فيها بالصور النادرة الغريبة كقوله في أحد مطالعه:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطلـــه وعرى أفراس الصبـا ورواحلـــه[2].

وهو في الشطر الأول يقول إن قلبه كف عن حب سلمى، وقد أراد على طريقته أن يعبر عن هذا المعنى بصورة، فذهب يتخيل، وبعد به خياله، فإذا هو يتصور أسباب حبه وصبوته التي كان دائمًا يلزمها أفراسًا ورواحل يركبها إلى صاحبته، وكان طريقه إليها مشغولاً دائمًا بهذه الرواحل

(١) شاكي السلاح: تام السلاح. مقذف: غليظ اللحم. لبدة الأسد: ما تلبد على كتفيه من شعره.

(٢) أقصر: كف. الأفراس: جمع فرس. الرواحل: الإبل.

obeikandl.com

والأفراس. وقد انتهي اليوم كل شئ، فقد انصرف عن سلمى وحبها، ولم تعد تشغله أسباب صبوته القديمة. وهي صورة بعيدة لا تقع إلا في ذهن يكثر من التخيل والإغراق في التصور، ذهن يتعمق في الأشياء والمعاني، حتى يتخيلها أحياء حقيقية.

وأكبر الظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن زهيرًا كان شاعرًا مصورًا، فالتصوير أساس فنه، وكأنما تحول عقله إلى آله لاقطة، وهي ليست آلة فوتوغرافية، بل هي آلة خالقة، آلة تفكر في الأشياء من خلال أشياء أخرى فتعقد ما لا يحصى من مشابهات ومشاكلات، وما تلبث أن تتمثل فيما يقع تحت حسها أشباحًا وأطيافًا تتراءى لها واضحة تمام الوضوح.

ومهما تحدثنا في هذا الجانب فلن نستطيع أن نوفي زهيرًا حقه من بيان مقدرته التصويرية، وكأنى به كان الثمرة النهائية للجهود الفنية التي أودعها الجاهليون أشعارهم، فهو من جهة قد صقل أسلوبه إلى أبعد غاية من الصقل، ومن جهة ثانية عنى بموسيقاه وألحانه عناية واسعة بحيث لا يبدو فيها أي شذوذ، ومن جهة ثالثة استتم فن التصوير بفرعيه من التشبيه والاستعارة.

وكل هذه ألوان جمال نعجب بها عند زهير، فهو شاعر الجمال، وهو شاعر الحقيقة بحكمه، وهو شاعر الخير بدعوته إلى السلام وبما رسمه للفضيلة من مثل فيمن مدحهم، حتى ليروي أن عمر بن الخطاب استمع إلى بعض قطعه المتألقة في مديح هرم، فقال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

والحق أنه يصور مثلاً جيدًا من أمثلة الشعر الجاهلي، فقد انتهي عنده هذا الشعر إلى صورة رفيعة للخير والحق والجمال، وكان ما يزال يجهد نفسه في رسم خطوط هذه الصورة إجهادًا عبر عنه القدماء بأنه حولى صاحب حوليات، وهل يمكن أن نتصوره محققًا لهذه البراعة التي وصفناها بدون جهد عنيف كان يستنفد منه آمادًا طويلة من الزمن؟ إن كل جانب في شعره يدفعنا دفعًا إلى الإيمان بأنه كان يعاني طويلاً في صنع قصائده وما يتخذه لها من هذا الإطار الفني الدقيق.

---

(١) أغاني ١٠/ ٣٠٤.